

من رسالة الى صديق

حول التجديد

... الجديد جديد في مظهره، قديم في جوهره، لا يصلح موضوعاً لدرس ولا موضوعاً لحديث .

سنقول : إذن ما بان هذه القوائد الرائجة التي يجلوها الشعراء والمقالات الرائجة التي يدبجها الكتاب ؟ فأقول لك انك اذن تفهم من كلمتي القديم والجديد غير ما أفهم ، وتريد من مدلولها غير الذي أريد . كأنك تريد بهما ما كان يريد الأقدمون حين كانوا يتبارون في شعر امرئ القيس وجرير وأبي نواس وأبي تمام والبحرئى والمننى وابن هاني . والأقدمون كما تعلم إنما كانوا يختلفون في شكل الشعر لا في موضوعه ، فهم يتكلمون في النقط الجزل والركيك ، والأسلوب الرصين والمهلل ، والمعنى المسروق والمطروق ، والتشبيه المتزعج من وجوه البادية أو من صور الحضرة والمطلع الجيد والردى ، والتخلص الحسن والقيح ، ويمجرون في كل ذلك على أدواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والاجناس . وعذرم في ذلك واضح . فالشعراء لأسباب فطرية واجتماعية ، لم يقدموا اليهم الا نوعاً واحداً من الشعر هو ما يتعلق بالوجدان والمحافظة . فكان النقاد أمام وحدة الشعر العربي ونقصه ، متوقفين الى أن يقصروا جهودهم على لفظه : يحكون معدنه ، ويسججون عموده ، ويسرون غوره بالموازنة والمقارنة والتعقب . والشكل الخارجي حكمه حكم اللباس والأناشيد والآنية : يتغير بتغير الزمان والمكان والحالة ، ليس لأحد في ذلك حيلة .

فهل ترى أن أبا نواس مجدد بالاضافة الى امرئ القيس ؟ لأنه بدأ قصيده بوصف الخمر ، وتكلم في النملان والطرده ؟ أو أن المتنبي مجدد بالاضافة الى أبي نواس ، لأنه داف شيئاً من فلسفة اليونان في شعره ؟ أو أن مطراناً مجدد بالاضافة الى المتنبي ، لأنه ذكر القطار والكهرباء ، ولون أدبه بأدب الغرب ؟ ان لا أرى في مثل هذا التفاوت الظاهري تجديداً . ما دام الشعر قد ظل في كل هذه العصور واحداً في موضوعه وطريقه ونوعه وورثته . أما تغير الشكل فذلك فعل القانون العام الذي يغير أبداً كل شيء . وهل قصد أحد من هؤلاء وأولئك الى هذا التجديد المرعوم فجاهد في سيئه أهل جيله ، كما فعل أرباب المذهب الاتباعي (Classique) والابستداعي (Romantique) والواقعي (Realisme) في فرنسا مثلاً ؟ لم يكن شيء من ذلك ، لأنهم

لم يختلفوا كما اختلف العرنج في الموضوع والبنوع حتى تتباين الأغراض من تلك المواضع ، وتشعب المسالك الى هذه الينابيع . وهل سمعت أن الناس اختلفوا يوم تركوا العلبسة الى الكوز والكوب والقدح والجام ؟ أم علت أنهم اختصروا كلها تغيرت موادها من الجلد الى الخشب ، ثم الى الخرف . ثم الى الزجاج ، ثم الى المعدن ؟ كلا ! لم يسع أحد بذلك ، لأن الفن والماء . وهما القصد والغاية لم يتغيرا منذ خلقهما الله . أما حين تغير الشراب من اللبن الى الخرف فقد حدث الخلاف وتشعب الرأي وتعددت المذاهب . الحق أن التجديد لا يحدث ، والجديد لا يكون ، الا متى وجد القصص والتثيل في الشعر فيكمل ، ودخلت الأقصرة والقصص والرواية في الترفيتيم . أما ادعاء التجديد بالدعوة الى العامية وترجمة الأساليب القرية فمجرد يتظاهر بالقدرة ، وجهل ينسب بالتخلق ! الزيات

السائل

بينما كنت أسير في إحدى الطرق ، وقفني سائل مسكين بوجه شاحب ، وعينين داميتين ، وشفيتين متقلبتين ، وقدمين مرتجفتين . قلت في نفسي :
أوه ! ما أتى هذا الشقي !
قدمتُ إلى يده الخمراء النجيلة القنطرة ، وطلب مني صدقة بصوت يحقنه بالبكاء .

فوضعت يدي دون أن أفكر ، وقد أخذتني الشفقة على هذا البائس ، وضعتها في جيوبى ، ثم جعلت أبحث فيها عن شيء أعطيته إياه ، ولكنني واأسفاه لم أجده شيئاً ، لا نقوداً ولا ساعة ، حتى ولا منديلاً !

صار متوقفي حرجاً ، وما زال السائل ماداً إلى يده وانثماً كل الثقة من العطفة !

لم أعرف ماذا أعمل ! وفي النهاية أخرجت يدي وأنا حيران خجل ، ثم مددتها وصاغت يده الممدودة قائلاً :
« أنا آسف يا أخى فليس معي شيء . »

ولم أكد أم هذه الجملة حتى رأيت عيني السائل وشفته تفران عن ابتسامة رقيقة ، وإذا به يضغط على يدي شاكرًا متنا وهو يقول :

« حسناً يا أخى اشكر لك ! ان هذه أيضاً صدقة ! »

م . يونس